كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيّد

نائب رئيس المجمع

في حفل تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور زهير البابا في كلية الصيدلة بجامعة دمشق

يوم الخميس في ١٣/ ١٠/ ٢٠١١م

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صعبة هي مواقف الرثاء والتأبين على المرء؛ وما كنت أحسبني يومًا أقف هذا الموقف في تأبين عَلَمٍ من أعلام الفكر والثقافة في وطننا، عَلمٍ إذا ما ذكر فتمثل الذكرى على منصة من المناقب الرفيعة والأخلاق الفاضلة السامية والعلم الأصيل، ذلكم هو المجمعي المتميز الأستاذ الدكتور زهير البابا رحمه الله، الذي يعد من جيل المكابدة الحق والمعاناة المرة، الجيل الذي وطّد نفسه ليكون كالمصباح بعد أن امتلأ زيتًا معرفيًا.

لقد كانت حياته حافلة بالعطاء على مختلف المستويات، تدريسًا وإدارة وبحثًا وترجمة وتأليفًا وتحقيقًا، وكان يعمل بصمت في منأى عن التبجح والظهور، وتلك لعمري هي سمة العلماء الأفذاذ، فكان شموخًا في تواضعه، ومن اتضع ارتفع، فكان مثالًا للعالم المتواضع والباحث المدقق، يزين ذلك كله عفة اللسان وصفاء السريرة وسمو الأخلاق، وصلابة الانتماء.

مارس التدريس في كلية الصيدلة بجامعة دمشق وفي جامعة الرياض وفي معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، وتسلّم عمادة كلية الصيدلة بجامعة دمشق ورئاسة قسم العقاقير بجامعة الرياض.

وإلى جانب عمله التدريسي والإداري كان رحمه الله عضوًا في عدة جمعيات منها

جمعية تاريخ العلوم السورية، واللجنة الوطنية لتاريخ العلوم في سورية، وجمعية تاريخ الطب في فرنسا، إلى جانب عضويته في مجمع اللغة العربية.

كان مُجلِّيًا في العلوم الصيدلية «اختصاص عقاقير» حيث ألف مجموعة من الكتب الجامعية «علم العقاقير في جزأين، وعلم تشخيص العقاقير، وآداب الصيدلة»، وكان قد ترجم عدة مؤلفات تبحث في علمي العقاقير والنباتات الطبية قبل أن يقوم بتأليف أول كتاب يظهر باللغة العربية في علم العقاقير وتشخيصها المجهري والكيماوي، وقد صدر الكتاب في جزأين أولهما في الدروس النظرية وثانيهما في الدروس العملية.

ولم يقتصر صنيعه على معطيات هذه العلوم في عصرنا الحاضر، وإنما راح يبحث في تراث أمته منقبًا ومحققًا، فحقق عددًا من المخطوطات العلمية في ميادين تخصصه، كان قد ألَّفها بعض علمائنا العرب في حضارتنا العربية الإسلامية من أمثال ابن سينا والزهراوي وابن التلميذ والقلانسي، وكانت للدراسات العلمية التراثية مكانة خاصة في نفس المرحوم الدكتور البابا.

فمن يلق نظرة على البحوث التي قدمها إلى المؤتمرات العلمية، أو التي نشرت في المجلات العلمية، يجدْ أن نصيب التراث منها في تاريخ العلوم عند العرب كان كبيرًا، ومن هذه البحوث «الأقرباذينات أو دساتير الأدوية العربية، مصادر الأدوية المفردة في الطب العربي، الفحوص المخبرية في المؤلفات الطبية العربية، علم السموم في الطب العربي، ابن سينا وإسهامه في وضع أسس علم المياه، تقدم العلوم الصيدلية في بلاد الأندلس، كشف الغطاء عن أحد مؤلفات ابن سينا (دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية)، الطب العربي قبل الفتح الإسلامي، التراث الطبي العربي في مكتبات الشرق والغرب، الصيدلاني أبو القاسم الزهراوي، تأثير اللغة السريانية في المصطلحات الطبية العربية، علم الجنين بين اليونان والعرب...الخ».

ومعذرة فلست الآن في مجال الحصر، وإنما هي إشارات فقط إلى عدد من البحوث التي جمع فيها بين الأصالة والمعاصرة، لإيمانه أن ثمة كنوزًا في تراث أمتنا لابد من تَعَرُّفِها؛ وهذا ما آمن به أستاذنا الراحل المجمعي المرحوم الدكتور عبد الكريم اليافي عندما قال عن تراث أمته:

منه إشراقنا ولولا الجذور الخضر ما هزت الصبا أغصانا

وما دعا إليه المجمعي بدوي الجبل عندما يقول:

وإذا رفت الغصون اخضرارًا فالذي أبدع الغصون الجذور

أما عضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق فقد كانت مكللة بالأعمال العلمية المتنوعة، حيث كان عضوًا في عدة لجان في المجمع، أسهم فيها إسهامًا فعّالًا. ومن هذه اللجان: لجنة مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيميائية، ولجنة المخطوطات وإحياء التراث، ولجنة مصطلحات العلوم الطبيعية والزراعية، ولجنة المعجمات اللغوية، ولجنة تنسيق المصطلحات وتوحيدها وألفاظ الحضارة، ولجنة مصطلحات الأحياء الحيوانية، ولجنة مصطلحات الأحياء النباتية، ولجنة مصطلحات العلوم الزراعية، ولجنة مصطلحات العلوم الجيولوجية، ولجنة إنجاز أعمال مؤسسي المجمع في العقد الأول من تأسيسه.

ولكم أن تتصوروا أيتها السيدات وأيها السادة، ضخامة الأعباء التي كان يضطلع بها الأستاذ الدكتور زهير البابا في أعمال هذه اللجان في مجمع اللغة العربية، وأن تتصوروا في الوقت نفسه مدى الخسارة الكبيرة من جرّاء فقدانه، ولكن تلك هي إرادة الله ومشيئته، ولا رادَّ لإرادته ولا تمرد على مشيئته، وليس لنا إلا التحلي بالصبر تجاه هذا المصاب الذي ألم بالثقافة والعلم، نتيجة لأفول نجم وغياب فارس فذٍّ من فرسان العلم والثقافة في عصر

كثر فيه أدعياء العلم والثقافة. وشتان بين مدَّعٍ مغرور، وعالم متواضع. ذاك مقتله غروره وادعاؤه، وهذا ثروته علمه الغزير وتواضعه الجم وسيرته العطرة، ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

إذا زاد علم المرء قلَّ ادعاؤه وإن قلَّ يومًا علمُه ضلَّ وادّعى

كذا الغصنُ أيامَ الثمارِ تنالُه وإن صار معدومَ الثمارِ ترفعا

أيها الحفل الكريم

لقد عرفت الأستاذ الفاضل المرحوم الدكتور البابا في ثمانينيات القرن الماضي، حيث كنت بمعيته في عضوية لجان لتقويم الشهادات العلمية في مجلس التعليم العالي، فعرفت في شخصه النبيل نزاهة العالم، وموضوعيته، وعدالته، وحرصه الشديد على المستوى العلمي للمرشح الذي سيعيَّن عضوَ هيئةٍ تدريسية في الجامعات السورية، وكنت أُكبر فيه هذه المزايا التي كنت أفتقدها لدى بعضهم، وطالما قلت له آنذاك: بارك الله لوطنك في مواقفك المشرفة التي لا تروم إلا الحق والحق وحده، ولا تخشى في قول الحق لومة لائم، مهما تَكُنِ الوساطات والتدخلات، وبأمثالك تبنى الأوطان، وتصلب أسس البنيان.

وعرفت مزايا أخرى في فقيدنا الغالي في النصف الأول من عقد التسعينيات عندما كلفته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) إنجازَ بحث في تاريخ العلوم عند العرب لمصلحتها. وكنتُ آنئذٍ مديرًا لقطاع التربية في المنظمة، وطالما كنا في المنظمة نتابع الباحثين على الصعيد العربي لإنجاز بحوثهم في المواعيد المحددة لها، وطالما كانوا يتلكؤون في إنجازها، في الوقت الذي كنا فيه نعاني في الإدارة الاحتراق النفسي نتيجة لهذا التأخير وذلك التلكؤ والتراخي، ولكن فقيدنا الغالي أنجز بحثه في الموعد المحدد، وتلك هي سمة من سمات المؤمنين الذين إذا وعدوا وفوا، فقد كان وفيًا لرسالته حريصًا أيما حرص على الإنجاز والإتقان معًا، وقد شاركه في صنيعه هذا أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الله عبد

الدايم، فقد كان مثالًا في إيفائه بمواعيده المحددة، وصدق أمير الشعراء شوقي إذ يقول:

ارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمرٌ ثان

طوبى لك أيها الراحل العَلَم، لأنك تركت لنا سيرتك العلمية المتميزة والمناقبية الرفيعة، وليرحمك الله الرحمة الواسعة سَعَةَ ما قدمته لأمتك من أفانين المعرفة وجزيل العطاء، وأقدّم التعازي باسم مجمع اللغة العربية لأبنائك الكرام الدكتور مازن والدكتورة خلود ولآلك جميعًا وذويك وأصدقائك وطلابك وجامعتك، داعيًا الله أن يسكنك فسيح جناته، وأن يلهمنا جميعًا الصبر والسلوان بسبب هذا الغياب المؤلم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.